في إطار التأكيد على رؤية لهذه الثقافة تقوم على الانفتاح والتسامح

مدينة حلب السورية تحتفل بإعلانها عاصمة للثقافة الإسلامية

لوحة المولوية (القدس العربي)

اوبريت حلب (القدس العربي)

دمشق ـ «القدس العربي»

ـ من أنور بدر:

قبل أن نرصد لحظة الاحتفال التي عاشتها مدينة حلب في 18 آذار/ مارس الحالي، بمناسبة إعلانها عاصمة للثقافة الإسلامية، نشير الى أن تلك الفكرة التي نوقشت على مستوى المؤتمر الإسلامي والمنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم «الاسيسكو» عام /2002/ وعام /2004/، جاءت كرد على الاشتباك السياسي الذي حصل بعد أحداث 11 أيلول /سبتمبر، وما نتج عنها من توصيف للعالم الإسلامي باعتباره مبعثاً للإرهاب، وتوظيف ذلك ضمن نظرية صراع الحضارات، وكمحاولة للرد على تلك الافتراءات وبيان أن الإسلام دين تسامح ومحبة، نشر موجات من ثقافة الانفتاح على الآخر والتفاعل معه، كما أعطى حضارة وعمرانا وفكرا نيراً للبشرية، وهو بعكس ما ينسب إليه من تنمية واحتواء البؤر الإرهابية، والتي إن وجدت إنما توجد لأسباب اقتصادية وسياسية بعيداً عن ثقافة الإسلام وتعاليمه.

في هذا الإطار أقرت مكة المكرمة عاصمة أولى للثقافة الإسلامية، نظراً للدور التاريخي والروحي والفكري الذي تلعبه في حياة المسلمين، وبعدها كانت مدينة حلب في سورية وأصفهان في إيران، واللتان يجري الاحتفال بهما هذا العام كعاصمتين للثقافة الإسلامية.

عندما أقرت حلب عاصمة للثقافة الإسلامية في مؤتمر وزراء الثقافة للبلدان الإسلامية عام 2004، والذي عقّد في الجزائر، اعتمدت معايير موضوعية تتصل بالعراقة العمرانية والتراث الفكري والفني لهذه المدينة، والدور الثقافي والاقتصادي الذي لعبته تاريخياً، بما يؤكد التوجهات السابقة لمنظمة المؤتمر الإسلامي ومنظمة «الاسيسكو» في محاولة التصدي للاتهامات التي تعرضت للدين الإسلامي وللمسلمين، إذ كانت مدينة حلب مظلة حضارية استوعبت شتى المعارف والعلوم التي أنتجتها الحضارة الإسلامية عبر أربعة عشر قرناً.

وقد تحدث الدكتور رياض نعسان آغا وزير الثقافة وممثل رئيس الجمهورية في رعاية هذا الاحتفال مرحباً بالضيوف الرسميين قائلاً "أهلاً بكم مجتمعين في أرض هي أرض التنوع في الثقافات وفي الأعراق وفي الإثنيات حيث تلتقي كلها جميعاً تحت مظلة الثقافة الإسلامية».

وأشار الدكتور وزير الثقافة الى أن هذه المدينة تختص دون غيرها من كثير من مدن العالم بسمات تزهو بها، حيث حفظت لكل الشعوب والأعراق حقوقها إبان الفتح الإسلامي، ففي حلب لا تزال تلك الثقافات حية، ولا تزال تلك الثقافات متفاعلة مع رسالة الإسلام وثقافته، وحين نقول الثقافة الإسلامية فنحن لا نقصد ديانة... وإنما نقصد فيما نقصد سلوكاً ونقصد كل ما يرفد الإسلام العظيم في قيمه، ففي هذه النهر العظيم الخالد، نهر الثقافة الإنسانية، لم نجد شيئاً في ثقافة الإسلام يتنافى مع الإنسانية.

وفي هذا الإطار تحدث الدكتور تامر الحجة محافظ مدينة حلب، وتحدث الدكتور المنجي بوسنينة المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، والدكتور خالد أرن المدير العام لمركز أبحاث التاريخ والفنون والثقافة متحدثاً باسم منظمة المؤتمر الإسلامي، مؤكداً أن التسامح الديني الذي تتميز به مدينة حلب يعكس تراثاً حضارياً متنوعاً لكنه متجانس، وبنفس الوقت سمح باستقطاب رجالات الفكر والعلم والثقافة والفنون في العالم الإسلامي.

بعد هذه الكلمات قام الدكتور نجيب الغياني صالح ممثل المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة بتقديم ميدالية المنظمة إلى المهندس محمد ناجي العطري رئيس الوزراء السوري وإلى وزير الثقافة د. رياض نعسان آغا وإلى محافظ حلب تقديراً لجهودهم في إنجاح هذه الاحتفالية، والتي توجت بعرض بانورامي على شكل اوبريت بعنوان «حلب على صفحات التاريخ» تم من خلاله إبراز تاريخ حلب منذ الألف العاشرة قبل الميلاد وصولاً إلى اليوم، وذلك في إطار لوحات فنية غنائية تمثل التراث الحلبي عبر الحقب التاريخية، وبشكل خاص الفترة الحمدانية.

أعد هذه الأوبريت الباحث محمد قجة وأخرجها ماهر صليبي وشارك فيها عدد من الممثلين والمطربين إضافة للفرق الاستعراضية والتراثية والعزف الشرقي، كما تم في قاعة العرش بقلعة حلب تقديم عروض أزياء تراثية وشعبية، وأخرى توائم بين التراث والحداثة.

***

بعيداً عن الأجواء الاحتفالية نقول ان حلب حاضرة مدينية ازدهرت كمحطة تجارية منذ الألف السادس قبل الميلاد، لأنها تتوسط مدن الفرات ومدن ساحل المتوسط، مما جعلها محطة قوافل عبر طريق الحرير وطريق التوابل، لذلك كثرت فيها الخانات والقيسارات، ويذكر عبد الرحمن حميدة في كتابه «محافظة حلب» الذي أعيد طبعه في وزارة الثقافة بهذه المناسبة، أن أول ذكر لمدينة حلب جاء في عهد ريموش الأكادي /2515ـ2530/ ق.م. كما ورد ذكرها على مسلة الملك الأكادي نارا مسين التي اكتشفت في ديار بكر، وفي كتابات إيبلا، كما يذكر الدكتور حميدة الإمبراطوريات التي مرت على حلب من الحثيين في العراق 19ق.م فالمتانيون والآشوريون والفرس، ثم الحكم الهيليني والروماني وصولاً إلى الفتح الإسلامي، حيث تعاقبت على هذه المدينة كل العهود الإسلامية وأهمها المرحلة الأموية، إذ لعبت حلب دوراً هاماً كثغر في مواجهة الدولة البيزنطية، وكانت مركزاً لتجمع الجيوش الإسلامية ومقر صائفة الخليفة الوليد بن عبد الملك ومن بعده سليمان بن عبد الملك ثم عمر بن عبد العزيز. ومن أهم آثار هذه الحقبة الجامع الأموي والمعروف بالجامع الكبير والذي بني على غرار الجامع الأموي في دمشق.

ولكن أهم مرحلة إسلامية بالنسبة لمدينة حلب هي مرحلة الدولة الحمدانية حيث تحولت إلى عاصمة حقيقية حملت لواء الإسلام في مواجهة الروم، واهتمت بالآداب والموسيقى والغناء، وبعدها نجد آثاراً للمراحل المرادسية والسلجوقية والزنكية فالأيوبية، وفي كل مرحلة بنى العديد من الجوامع والأبراج والحمامات والدور الأثرية، وما يميز حلب عن غيرها من الحواضر الإسلامية أنها حافظت على 80 % من نسيجها المعماري القديم، في حين اندثر هذا النسيج من مدن أكبر كدمشق والقاهرة.

وفي مدينة حلب أثران مسجلان في موسوعة غينس للأرقام القياسية، أولهما قلعتها التي يتجاوز عمرها تسعة آلاف سنة والأكبر مساحة بين القلاع إذ تمتد مساحتها على (11) هكتاراً، ومع الخندق المحيط بها تبلغ (20) هكتاراً. والأثر الثاني يكمن في أسواقها المسقوفة بالحجر حيث يبلغ عددها (39) سوقاً، مجموع أطوالها (15) كم. كما يحيط بمدينة حلب سور قديم فيه تسعة أبواب.

وقد اشتهرت حلب بصناعاتها النسيجية والحرفية، كما اشتهرت كمحطة قوافل وتجارة، وفيها أنشئت أول قنصلية إيطالية وفرنسية وبريطانية، لتسهيل أمور التجارة، واشتهرت في حلب فنون الطرب والغناء ولا زالت تحتفظ بلون «القدود الحلبية» الأصيل فيها، والذي يعتقد البعض أنه هاجر إلى الأندلس فتطور إلى الموشحات، ومن ثم عاد إليها بعد انهيار إمارات ملوك الطوائف.

كما اشتهرت الحياة الثقافية في مدينة حلب، حتى أن الشاعر الفرنسي الشهير «لامارتين» الذي عاش فيها ردحاً من الزمن دعاها «أثينا الآسيوية» إذ ارتفع عدد المطابع فيها بداية القرن المنصرم إلى (16) مطبعة ووصل إلى (38) في عام /1956/، وأول صحيفة صدرت في حلب عام /1867/ باللغتين التركية والعربية، ثم أضيفت لها اللغة الأرمنية بعد العدد الخمسين. وقد تعاقب على تحريرها عدد من الأسماء أهمهم المناضل عبد الرحمن الكواكبي، إلى أن ألغيت سنة 1916.

كما صدرت صحف «حلب الشهباء ـ الاعتدال ـ جريدة العرب ـ جريدة حلب...»، وخلال مرحلة الانتداب الفرنسي صدرت الصحف التالية «الجهاد ـ الشباب ـ الميثاق ـ الاتحاد ـ الأهالي ـ النذير ـ التقدم ـ الوقت ـ الحوادث» وأخيراً «برق الشام» التي صدرت بالفرنسية وتحولت إلى العربية بعد الاستقلال، كما ظهرت لاحقاً صحف «الميزان ـ الوطن ـ التربية ـ الصباح ـ النهضة ـ الأمل ـ المرأة ـ رسالة العمال» حتى جاءت قرارات تأميم الصحافة مطلع الستينات، فاقتصرت على صحيفة محلية باسم «الجماهير» تصدر عن دار الوحدة التي تصدر صحيفة «الثورة» في دمشق، ومجموعة الصحف المحلية في المحافظات.

وفي مدينة حلب عدد من المشافي «البيمارستانات» الإسلامية، تدل على تطور حضاري وعلمي وعلى تطور معماري بآن معاً، وأشهرها «بيمارستان الأرغوني» و«بيمارستان النوري» ولكل منهما مدخلان رئيسي وفرعي، الأول يؤدي إلى ردهة إلى اليسار فيها حجرة وفتحات في جدرانها الأدوية، وإلى يمين الردهة حجرتان للانتظار والمعاينة الخارجية، وتتوسط بيمارستان الأرغوني بركة كبيرة مع نافورة ماء، وعلى جانبي الصحن رواقان في صدر الرواق الشرقي خمس حجرات صغيرة وأربع في الغربي، وفي جنوبي الصحن إيوان تعلوه قبة. ويعتبر هذا البيمارستان من آيات العمارة الإسلامية ويوجد الآن مشروع لإعادة ترميم وتأهيل هذه البيمارستانات.

كما تتضمن احتفالية حلب عاصمة الثقافة الإسلامية ترميم القطاع الغربي من قلعة حلب وتطوير محيطها، إضافة لتأهيل الساحة أمام متحف القلعة.

كما تشمل الاحتفالية ترميم بعض المباني الأثرية وتأهيلها لتكون متاحف أو مدارس أو منتديات ثقافية، وإقامة العديد من الأنشطة الفنية والاجتماعية، وحوالي /20/ معرضاً متخصصاً في الفن التشكيلي، والتصوير الضوئي والصناعات التقليدية والأزياء التراثية، والمخططات والوثائق والطوابع، إضافة لإلقاء أكثر من مئتي محاضرة و (10) ندوات دولية يشارك فيها باحثون من أنحاء العالم أجمع، وطباعة أكثر من مئتي كتاب حول حلب وتراثها وآفاق مستقبلها، صدر منها حتى الآن «الأدب الشعبي في حلب» للباحث محمد حسن عبد المحسن، و«محافظة حلب» للدكتور عبد الرحمن حميدة، و«أحياء حلب وأسواقها» للباحث خير الدين الأسدي، ثم كتاب «حلب في أحاديث الماء والجمال».

وإذا كانت حلب قد عرفت أسماء مهمة في الثقافة والفن عبر التاريخ حيث أمّ بلاط الأمير سيف الدولة كل من الفارابي فيلسوفاً، والمتنبي شاعراً، وابن جنّي نحوياً والصنوبري في علوم الطبيعة، والأصفهاني مؤرخاً، فإنها أنجبت أسماء لامعة في العصر الحديث كالشاعر «عمر أبو ريشة» والكاتب «وليد إخلاصي» والقاص «فاضل السباعي» والناقد «عبد الرحمن قلعجي» وصولاً إلى الفنانين التشكيليين «لؤي كيالي ـ فاتح المدرّس ـ سعد يكن» إضافة لأسماء لا تقل أهمية في عالم الطرب أمثال «صبري مدلل وصباح فخري وخيري حمام» والمطربتين فاتن وميادة حناوي، كذلك فرق التراث الشعبي وأهمها فرقة «شيوخ سلاطين الطرب».

أخيراً ننقل عن السيد محافظ حلب أن ميزانية هذه الاحتفالية جاءت من مصادر متعددة، فالحكومة السورية رصدت مبلغ (100) مليون ليرة على شكل سلف، والمحافظة بدورها خصصت (100) مليون ليرة لإعادة تأهيل البنية التحتية للمدينة، وهناك مساهمة من مجلس مدينة حلب، كما خصصت وزارة الأوقاف (70) مليون ليرة، في حين رصدت وزارة السياحة لحفل الافتتاح (10) ملايين ليرة، بالإضافة لتبرعات عينية خاصة، فالقطاع الخاص تعهد بترميم عدد من المواقع الاثرية تصل كلفتها الإجمالية الى (150) مليون ليرة سورية، كذلك منظمة الآغا خان، كما تبرع أحد أبناء حلب بإنشاء الكرة الكبيرة التي تتوسط ساحة سعد الله الجابري والتي ستكون مسرحاً صيفياً تقدم من خلاله الفرق الفلكلورية فنونها، ومنها سينطلق الكرنفال الاحتفالي، وستفوق قيمتها الفنية أي قيمة مادية لها.

لكن السؤال الأخير، كيف نحافظ على مدينة حلب عاصمة حقيقية للثقافة، ولا نحولها إلى مُجرّد احتفالية يطويها الزمن؟!

تداعيات

الفرانكفوني، يبقى في متاهته دائما!

أحمد المديني*

■ ما هي الفرانكفونية؟ ما هو موضوع الفرانكفونية؟ من هو الفرانكفوني؟ لا مناص من مواجهة هذه الأسئلة كلما أثيرت هذه القضية إما في مجال ثقافي ـ أدبي، أو في إطار سجالي، كما بات غالبا في السنوات الأخيرة، بعد أن استقر في بعض الأذهان أن موضوعها أضحى محسوما بوصفها تعد مكونا لغويا وثقافيا جوهريا في البلدان التي كانت دائرة في فلك الإستعمار الفرنسي، وفرنسا، وما تزال على نحو ما.

ليس من مهمة هذه الورقة الاجابة على الأسئلة أعلاه وما في ضربها، إذ فضلا عن طابعها الإشكالي المندرج في سيرورة تاريخية مركّبة قلّ أن تسمح بنقاش هادئ حولها ما دامت تخفي توترات نفسية وإرباكات إيديولوجية. نظن أن المعنيين بالموضوع مباشرة، أهل الفرانكفونية، سواء المترعرعين في لغتها وثقافتها، أو ممن يواصلون ترسيخ عُمُدُها وتشييد بنائها، هم الذين يواصلون الإلحاح ومعاودة طرح أسئلة هويتها من جوانب مختلفة، وباصطناع المناسبات لهذا الغرض، ولا شك أن السبب يرجع إلى الإحساس بأزمة ما، المكتوون بها أدرى بها منا نحن الذين نقع في الطرف الآخر من لفح النار، أولاً يسمينا بعض هؤلاء الذين نشترك معهم في بطاقة التعريف، وجواز السفر، والتراب والشمس والهواء، ألا يسمينا هؤلاء «ليزرابيزان ـ Les Arabisans» بغير قليل من السخرية والاستخفاف!

آخر المناسبات معرض الكتاب بباريس المنعقد في دورته السنوية (17 ـ 22آذار ـ مارس الجاري) وهو مناسبة ثقافية شامخة ما في ذلك شك، لكونه أحد أكبر أعياد الكتاب في العالم سنويا. موعد يختار له منظموه عادة ضيف شرف يكون بمثابة انفتاح على ثقافة أجنبية والتعريف بنتاجها. ضيف العام هو البلدان الفرانكفونية أو الثقافة الفرانكفونية، بإجمال. تشمل هذه البلدان بلجيكا والكبيك وجزءا من كندا وسويسرا، إضافة إلى أراضي ما وراء البحار التابعة للحكم الفرنسي كجزر المارتنيك وهايتي وكالدونيا الجديدة، وتلتحق بمدارها عدد من الدول التي شكلت جزءا من الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية، ونشرت فيها لغتها كأحد وسائل الهيمنة (الجزائر، المغرب، السينغال، لبنان، الكمبودج، الفيتنام، على سبيل المثال).. ولن ننسى بطبيعة الحال فرنسا، أم أن فرنسا صاحبة هذا الاختراع والمحفل، ومصدره اللغوي ـ الثقافي ـ الإبداعي والسياسي كذلك معنية كسيّد فقط، كأب كبير يحدب ويبذل أريحيته على أبنائه الصغار ورعاياه من حين لآخر درءاً لكل عقوق محتمل، ثم ينصرف إلى مشاغله الجدية بعدئذ؟ في حالتي الجواب بالإيجاب أو السلب فإن الأمر معضل. فلو قلنا إن بلاد نابليون والجنرال ديغول ضيف لأشكل علينا الأمر، إذ كيف تكون ضيفا ومضيفا في آن. وفي الحالة الثانية أجد أن الفرانكفونيين سيصطدمون محرجين ومأزومين بحقائق وأوضاع إشكالية يعيشونها على المستويات السياسية، والثقافية الشمولية، واللغوية الأدبية في ما يخص الكتاب بالذات.

لا شك أننا في الحالتين كلتيهما ملزمون باستحضار التعريفات للتسميات أعلاه أو بوضعها وضعا إذا تبين لنا فيها نقصان أو خلل. المعنيّ الأول بالأمر هو الفرانكفوني، الشخص، السياسي، المثقف، الكاتب الذي يعتبر نفسه سليل الفرانكفونية، مدينا لها بكل شيء وإحدى تجلياتها، وسيتوهم إذا اعتبر نفسه أكثر من تابع لفرنسا، إذا تخيل أنه جزء من «شجرة أنسابها» الكبرى لأنها هي ببساطة ـ وأيّ مفارقة هذه ـ ليست فرانكفونية، وترى في هذا المحفل، وفيه، بتعدد أدواره، بعداً لها، تراه آخرَ بالنسبة لها، كما تعلمنا نحن «ليزرابيزان» أن نقول، بلغة عبد الله العروي، إن الغرب آخر، بالنسبة إلينا. وهو لا يستطيع أن ينكر أنها خيمة سياسية إيديولوجية وإلا لماذا تصر على قمتها الدورية لرؤساء الدول في ظل صراعات جيواستراتيجية معلومة، وأنها في الصميم محفل ثقافي اللغة واشتراطاتُها (استلاباتها) هي اللحمة المشتركة بين الفئات المختلفة المنتسبة إليه بين الماضي والحاضر، وهي تمنح وتموّل وتنشئ المؤسسات التعليمية والثقافية والإعلامية وترصد الجوائز لتوسيع المحفل الذي ينبغي أن يظل امتدادا للمتروبول مستهلكا لجميع مواده، ومنتجا فيه بقدر معين فقط.

قبل التدشين الرسمي لمعرض باريس للكتاب انطلقت المنابر الإعلامية الثقافية في سباق تخوض في موضوع ضيف هذا العام وقضيته، خصصت «الماغازين ليتريير» الشهيرة عددها للموضوع، وتتوالى الأعمدة في الصحف اليومية والملاحق، والحوارات الإذاعية والتلفزية، وفي أغلب المعالجات يحاول الجميع إعلاميين ومحاورين التناور على الأسئلة المحرجة أو استبعادها، ولكن كل طرف، لا شك، يحس بالأزمة حين ينفرد بنفسه ويراها في مرآة بلده وتاريخه ولغته الأصلية وعلى ضوء مبادئ الحرية والسيادة، بعيدا عن كل المساحيق الظرفية أو نرجسيات الشهرة العابرة والمقتناة، أيضا، بمقابل: التنازل إن لم يكن التشهير، أحيانا، بالآباء والأجداد أرومة وثقافة. هذا، ورغم أن «ليلة الدخلة» في عرس الفرانكفونية قد مضى عليها ردح من الزمن، والعرسان أمضوا شهورا، ومنهم أعواما من العسل، إلا أن ثمة أكثر من طعم مرّ على اللسان، وغير تعبير وردود فعل تشي بالقلق والحيرة، في صف الفرانكفونيين، آباء وأحفاداً، وعلى أفواه الناطقين باسمهم أدبيا خاصة.

بين هؤلاء من يعتبر الفرانكفونية تسمية ملتبسة، قل قدحية. إن الكاتب الروائي اللبناني الأصل أمين معلوف يرفض أن يطلق عليه إسم كاتب فرانكفوني مفضلا إسم «كاتب باللغة الفرنسية»، وقد عبر (لومند الثقافي 10 آذار ـ مارس الجاري) عن استيائه الشديد بل استنكاره لتوصيف يحمل عنده دلالات ذات أصداء استعمارية ومرجعية إقصائية، فهل فلوبير أو سيلين أو أبولينر أدباء فرانكفونيون، ولماذا لا يصنف الذين يكتبون بالفرنسية مع الأنطولوجيات الفرنسية أو لا تُدرس نصوصهم بوصفها فرنسية أجنبية؟ وسوى هذا من الأسئلة المعبرة عن أزمة متواصلة منذ أن بدأ النقاش علنا عن ماهية الأدب المكتوب بالفرنسية في المتروبول وامتداده اللغوي، هذا الأدب الذي ما زال منتجوه والمروجون له يتخبطون في أزمة هويته، وهويتهم معه بالتبعية، باحثين باستمرار عن دواء ناجع لمرض ـ نرجو لهم الشفاء منه ـ لم تنفع معه مراهم من قبيل أن اللغة الفرنسية هي «منفانا» (مالك حداد) ولا كونها «غنيمة حرب» (كاتب ياسين). آخر المطببين شقيق لنا ـ حسبناه كذلك ضلالاً ـ هو الروائي ذائع الصيت الدكتور الطاهر بن جلون الذي وجد براءة اختراع لترياق ضد كل السموم والآلام المبرحة لضمائر ونفوس الكتاب الفرانكفونيين ـ على الأقل الشخصية ـ فقد قال لا فُضّ فوه (وهو في مجلس أشقائه ببرنامج تلفزي للقناة الثالثة الفرنسية فاتح مارس المنصرم يعده المنشط والكاتب جيسبير) بأن اللغة العربية تعوق، كلغة مقدسة، لغة القرآن، عن قول ما يريده أي كاتب بها، وهو يقصد طبعا حرية التعبير في أمور الجنس ومثلها. ونراه يقوّل الأحياء (أدونيس) ويزورّ على الموتى (خير الدين) وبين هذا وذاك فاللغة العربية عنده صنو العجز عن الكشف عن المخبوء والمكبوت وإضمارا ما استطاع بيانُه المعجز أن يفصح عنه بلغة مواربة وتهافتت دونه لغة الضاد البائرة، أليس كذلك؟! ولا نريد أي لجاج، كما أننا لسنا بأي حال في معرض الصراع مع هذا المحفل الذي لا يمكن أن ننكر بأي حال أنه جزء من مشهدنا الثقافي التعبيري العام ورافد بارز فيه له معبرون فيه منزهون عن الغرض وتشويه ثقافتهم الوطنية، يقولون ذواتهم بقدر الموهبة والصدق الذي يملكون في سياق مجتمع منفتح على التعددية، وكم سنحتاج من مقالات وعروض لنسفه الأضاليل، ونريَ لمن يغشاهم العمى إلى أي حد أبدع الأدباء العرب، قديما وحديثا في سائر أنواع التعبير ما يضاهي لغات أخرى ويفوقها في الكشف سواء عن مخبوء النفس أو تصوير فحيح الجسد وتجلياته وذلك بأقوى الصور وأشفها وأبهاها، ليس لتهييج الحواس ولا للاستعراء المجاني المدعي، بل لقول الإنسان في كليته الوجودية والحياتية رغم كل المعوقات التي تعترض محيطنا وفضاءاتنا الثقافية، أقول إننا نريد الإبتعاد ما أمكن عن اللجاج حين يتم التعريض بالثقافة العربية ولغتها وموروثها وقدراتها، لا سيما إذا طالتنا السهام من ذات سوار. ثم إنها شنشنة أعرفها من أخزم، وهي عملة رائجة بيد بعض الصرافين المزورين في بورصة الفرانكفونية، ويتداولها الصمّ والعمي والبكم أيضا، ابتغاء مرضاة، لا داعي للقول لمن، فالمرسل إليه واضح وضوح المرسل وخطابه «المبين»، ومن أحس بالوجع من الجهة التي يحس بها المرسل فعليه بالذهاب عاجلا إلى إحدى الصيدليات المفتوحة ليلا ونهارا توزع أقراص البلاغة الفرنسية بالمجان، ما دامت اللغة العربية وبلاغتها أمست في زمان الهوان هذا سقط متاع، تسام خسفا ومادة سخف في مجلس القيان والغلمان، لسان حالها اليوم ما قاله ذات يوم في غربة لا تقل عن غربتنا الآن، رب من أربابها العظام جدنا أحمد أبو الطيب المتنبي على شعره أزكى السلام: «وسوى الروم خلف ظهرك روم / فعلى أي جانبيك تميل»، فبأي آلاء ربكما تكذبان!

* كاتب من المغرب

عرض «الجنة الان» في اول «قافلة سينمائية» عربية اوروبية

القاهرة ـ من رياض ابو عواد:

يبدا مهرجان القافلة السينمائية العربية الاوروبية «كارافان» فعاليته الاربعاء في القاهرة لينتقل منها الى الاسكندرية ثم الى عمان وبيروت حيث سيعرض 72 فيلما بينها «الجنة الان» للمخرج الفلسطيني هاني ابو اسعد، كما اكدت مديرة مشروع «كارافان» هالة جلال.

وكان «الجنة الان» الذي شاركت في انتاجه ثلاث دول اوروبية هي هولندا وفرنسا والمانيا قد حاز عددا من الجوائز اهمها جائزة الملاك الازرق في مهرجان برلين السينمائي العام الماضي وجائزة «غولدن غلوب» لافضل فيلم اجنبي في اتحاد الصحافة الاجنبية في هوليوود العام الحالي كما رشح لاوسكار افضل فيلم اجنبي.

وانطلقت فكرة القافلة السينمائية العربية الاوروبية كما تقول هالة جلال «بمبادرة من شركة «سمات» التي قامت بتاسيسها مجموعة من السينمائين الشباب المستقلين من مصر وتهدف الى اطلاق الحوار الثقافي بين دول شمال وجنوب حوض المتوسط من خلال الابداع الفني».

واشارت الى تعاون عدة مؤسسات عربية مع «سيمات» اهمها معهد العالم العربي في باريس ومهرجان روتردام للسينما العربية في هولندا ومهرجان بيروت الدولي للسينما التسجيلية ومهرجان الاسماعيلية للسينما التسجيلية الى جانب وشركة بيونير للانتاج الفني بالاردن وشركة جود نيوز المصرية.

ويشارك في المهرجان المتنقل 72 فيلما من الافلام الروائية الطويلة والقصيرة والصور المتحركة والتسجيلية.

وسيتم عرض الافلام ضمن عدة اقسام منها «ايام السينما الفرنسية» الذي يعرض فيه سبعة افلام روائية حصلت على جوائز، وقسم «نظرة على السينما التونسية» ويشمل عروض لافلام روائية طويلة وقصيرة وتسجيلية.

وهناك ايضا قسم «السينما الالمانية» الذي تعرض فيه افلام روائية قصيرة وتسجيلية الى جانب افلام مصرية روائية قصيرة وتسجيلية انتجتها شركة سيمات لمخرجين شباب. (ا ف ب)

قصيدة في مأزق

نصر جميل شعث*

■ في حوار، كان قد أجراه معهُ الصحافي محمد ضمرة ونشرته صحيفة «الحياة الجديدة» الفلسطينية، بتاريخ 25/9/2003، يعترف الشاعر الفلسطيني: محمد حلمي الريشة بأنه قد «غيّر رأيه» السلبي في قصيدة النثر، وأنه صار يقرأها برغم تحفظه على كثير مما يكتب باسمها.. كما وأشار في الحوار ذاته، إلى أنّ قصيدة «نتوءات مائية» التي كانت بداياتها تراوده فيما كان يتأمل زرقة بحر مدينة غزة، هي أوّل ولادة لـ قصيدة النثر (لديه)، ومبيناً أنّ الجزءَ الخامس من مجموعته الشعرية العاشرة (خلف قميص نافر) قد انفرد بـ«قصائد نثر» (كما يسمّيها!) مشيراً إلى أنّه بعد هذا الجزء لم ولن يكتب قصيدة التفعيلة، ولا يفكّر بالعودة إليها على الإطلاق!

على ما تقدم رأيت أن أشير ببعض الضوء إلى مَطبّات هذا التحوّل الفجائيّ الذي انتاب تقنية شكل الكتابة، لدى الريشة، بهذه الجرأة. في هذه الزاوية، إذن، لن أتعمّق كثيراً في قصيدة التفعيلة وقصيدة النثر ما لهما وما عليهما، ولكنني أودُّ الوقوفَ على أمر كثيراً ما أنتبه إليه في أثناء قراءاتي لقصائد شعراء اعترفوا بشرعية قصيدة النثر في زمن متأخر ـ ما اعتبرَ مأخذاً فنياً على منجزاتهم ذوات البداية المتأخّرة في الكتابة المتحرّرة، في مقابل النهاية المتأخرة للكتابة المشروطة. على أية حال، أمامي الآن الإصدار العاشر ترتيبياً للشّاعر الريشة، ويحمل عنوان «خلف قميص نافر»؛ الجزء الأخير منه ـ إذا ما احترمنا الدقة، واستحضرنا من أجل التوضيح، التمثيلية الإحيائية ـ هو بمثابة نطفة في إمكانية ميلاد «قصيدة نثر»، والإشارة كما اتفقنا تذهب لـ قصيدة «نتوءات مائية». وحتى لو افترضنا جدلاً بحصول تكوين الجنين الفني داخل كتابة «نتوءات مائية»؛ فإنّ ذلك الجنين المحتمل، على أية حال، لم يبشّرنا، بصرخته الأولى، بالمعنى التبشيري والمعنى الإحيائي الفني لشرط سلامة ميلاد «قصيد نثر» كما نتوقعها كون «أفق الانتظار» بحسب جماليات التلقي عند ياوس «يمثل لحظة رابطة بين تجربتين لدى القارىء: تجربة متحققة تتجلى في تمرسه الجمالي بأعمال أدبية مألوفة عنده وتجربة مرتقبة تتمثل في تطلعه إلى اختبار أعمال أدبية جديدة ممكنة تنزاح عما اعتاده وتتسم بالغرابة والبعد عن متناول إدراكه». ما لفت انتباهي في مجموعة الريشة ـ التي أجزاؤها الأولى «تفعيلية»، والجزء الأخير فيها منثور ـ هو أنّ الشاعر الذي قرّر، منذ هذا الجزء الأخير، الفكاك من قصيدة التفعيلة، لم يكن على جرأة واضحة ليطبق فك الارتباط بحذافيره، بينه وبين التفعيلة.

ذلك أن قراءة متأنية لأجزاء «خلف قميص نافر» ومقارنة ناضجة لآخر جزء فيها، سوف يتمخض عنها اعتراف ثانٍ، لكن هذه المرّة من القارئ، مفاده أنّ الريشة لم يمارسْ على ذاته الشعرية جرأة التخلي عن طابع التفعيلة، وهو طابع ينطوي على تعشيق جَبْري في «نتوءات مائية»، كتحديد مبدئي. وبعبارة أخرى، فالريشة في تكيّف خفي في باطن التفعيلة، هذا يجدر معه القول: إنّ الشاعر منذ كتابته الشعرية الأولى وحتى «نتوءات مائية»، ما كان له أن يتجاوز كرامة الخليل بن أحمد الفراهيدي، فهذه الموسيقى تجري منه مجرى الدماء في العروق.

مما أبقاه، ذلك، في حنين إلى «الجدّة» (التفعيلة) فيما هو يسافر في «الجدّة» (قصيدة النثر). حالة التردّد في كتابة القصيدة بين الوزن وعدمه هي بمثابة منطقة اضطراب الشاعر، حتى في مجموعاته اللاحقة «هاويات مخصبة» و«أطلس الغبار» يقلقنا بحث الريشة المضطرب عن خلاصه، بمعنى حلوله في كتابة جديدة متجاوزة. لأنه منذ البداية لم يراعِ شرط الإيمان الفني بـ«قصيدة النثر»، ولم يتعاطَ ـ قبل «نتوءات مائية» ـ معها، بكيفية التلقي والتفاعل معها بجمالية وفنية، بوصفها لوناً مجاوراً لقصيدة التفعيلة. إنّ اعتراف الريشة المتأخّر بـ«قصيدة النثر» أوْقعهُ في منطقة الـ«مع ضد» دون حصول الـ«تجاوز» بالمفهوم الهيغلي، إنما القراءةُ ـ الآن ـ تُصَرّحُ أو تكشف عن «وجود مأزق» في إنتاجية النصّ وفنيته، في الجزء الأخير من مجموعة «خلف قميص نافر»، والذي هو امتدادٌ حتمي لماضي التفعيلة، الموجودة في الأجزاء الأولى للمجموعة، ولمستقبل النصّ الذي نقرأه ـ الآن ـ في مجموعتيه اللاحقتين «هاويات مخصبة»، و«أطلس الغبار».

وهنا، بالتحديد، ينبغي الانتباه إلى أن لـ« قصيدة النثر» خصوصية وذاتية بعيداً عن التعشيق، والمصنعية. إن إنتاجية الريشة ـ الآن ـ في مأزق فني، ذلك لأن المُنْتِجَ في حالة التحاق سريع، واستدراك شعري يعتقد، أي المنتج، أنه من شأنه أن ينتج الكلمة الشعرية الخاصة به في فضاء كتابة جديدة تتجاوز شروط الفراهيدي، وملحقه الأخفش. وبتقنية توصيل أخرى: فإن المأزق الفني، لدى الريشة، يتمثّل في سعيه للتخفّف من ظلال العادة، بممارسةً تثير الغرابة، بوصف الأخيرة ليست ندا للعادة، بقدر ما أنها تبرز كمشكلة جمالية في «أفق الانتظار» المتلقي، و«مسافته الجمالية».

إنّ اعتراف الريشة الصحافي، بتخليه عن كتابة قصيدة التفعيلة «لا يعني، على أية حال، إدراكه للشروط الفنية المتعلقة بـ«قصيدة النثر» ففي حالة كهذه فإن بداية التحول عنده، إنما اقتضت منه الاشتغال بوعي مخلص من أجل طرد التفعيلة من «نتوءات مائية» وما لحقها مستقبلاً. وهو ما يعني، في الوقت ذاته، إنتاج الكتابة في معمل نظريّ وعرٍ، بنظرة المتلقي ـ قارئ قصيدة النثر»..

* شاعر من فلسطين